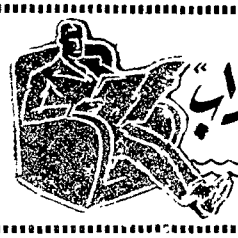

قرأت العدد الماضي من "الآداب"

بقلم
رئيف خوري

هذا الباب الذي تقدمه « الآداب » تطلق لكاتبه الحرية كلّها في الادلاء برأيه حول مقالات المجلة ، دون ان يكون في ذلك أي تعبير عن رأيها الخاص . فعلى الكاتب وحده تبعة ما يقول ، ولكل قارىء الحق في الرد على الكاتب .

هذه السعادة « الليبوتانغية »

رعى الله أبا عثمان — اعني الجاحظ — لقد أنقذني ! طلبت نعتاً انعت به العدد الفائت من « الآداب » — أرجو ان لا يكون فاتك ايها القارىء ! — فما وجدت خيراً من العبارة الجاحظية في وصف الكتاب « إناءٌ شُحن مزاحاً وجداً » . على ان المزاح كان ممحواً أو كالممحو من « الآداب » ، إلا أن يكون هو ، مثلاً ، زعم كاتب الصين لين يوتانغ « ان السعادة تكاد تكون بالنسبة اليه شخصياً مسألة هضم . . . دلك بأنه اذا تحركت أمعاء المرء تحركاً نظامياً كان سعيداً » . اكبر الظن ان هذه ليست « فلسفة من الصين » — كما يقول صاحبها — ولكنها احرى بان تكون آية تنقش على مدخل مستشفى حُشِد فيه المصابون بالامساك من كل الامم ، كما نقشت قديماً آية « اعرف نفسك » على مدخل هيكل « دلف » .

ومن الخير ان يكون حظ « الآداب » من المزاح ضئيلاً يسيراً . فقد طالت الحقبة التي زعم فيها الزاعمون ، أن قراءنا معرضون لتلبك في جهاز الهضم العقلي ، وأنهم لا يسعدون الا بما يخف من الفكاهات على المعدة الدماغية (عفواً) انما لحقني أثر من عبارة السيد لين يوتانغ في السعادة !

اذاً ، كانت « الآداب » في عددها البكر « إناء شُحنَ جداً ، ووعاء مليء علماً ، وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء ، ومن لك بناطق أخرس وببارد حار ! » الى آخر ما دفقه يراع ابي عثمان في وصف الكتاب على أمتع ماتصوره واحبه ان يكون .

فما أحوج من يقع من نصيبه التعليق على هذا العدد الحافل الى عدد لا يقل عنه . ولكن ، كما قال القائل : « ما لا يدرك جله لا يترك كله » ، أم تراه قال : « ما لا يدرك جله لا يترك كله ؟ » على أي حال ، لقد أوجد لنا العذر .

رسالة الآداب — أدب « الالتزام »

اعجبتني من الدكتور سهل ادريس هذه البلورة الواضحة للرسالة التي أرادها « للآداب » . فهو يجهر بالدعوة الى الادب الفعال الذي يتصادى ويتعاطى مع المجتمع » وينادي « بأدب الالتزام الذي ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه » واعترف له بان « يتصادى » هذه حيرتني وقتاً ، فمن معانيها على ذمة المعجم : المعارضة والمقابلة والمعادلة والمداجاة والمداراة والمساترة والاهتمام بالشيء . واستغربت ان يكون المراد واحداً من هذه المعاني . ثم فطنت الى ان الكاتب إنما نظر الى الصدى بمعنى الصوت الذي يردّه الجبل على المصوّت فيه . فقصد بقوله : « الادب الذي يتصادى مع المجتمع » ادباً يتبادل الصدى مع المجتمع ، فيدوي في المجتمع صداه كما يدوي فيه صدى المجتمع . وإنني لمن يوافقون على الانتفاع بأقصى ما يتيحه كيان اللغة العربية من تصريف واشتقاق في سبيل استحداث ألفاظ جديدة تدور في الاستعمال . ولكني اقترح ان تشرح كل كلمة مستحدثة من هذا النوع ، كي تسرع اسراعاً الى فهم القارىء ، وكي تبرز له بروزاً يرسّخها في ذهنه فيساعد ذلك على نشرها وإدخالها جظيرة الالفاظ الكتابية اذا استوفت شروط اللفظة المستحقة الحياة .

يريد الاستاذ ادريس ، في وضوح وإصرار ، أدب التزام ينبع من المجتمع العربي ويصب فيه ، ادباً فعالاً يتأثر بالمجتمع ويؤثر فيه . وليس الاستاذ ادريس هو الذي يريد ذلك وحده . فالدعوة إلى أدب « موثق الاواصر بالمجتمع » « ادب انصوائي لا انطوائي ولا انعزالي » ، « ينبثق من صميم المجتمع » و « لا يقبع في برج عاجي » و « يجابه مشاكل المجتمع الملحّة » و « يوجّه المجتمع » الى آخر صور التعبير التي يُقلب عليها هذا المعنى الواحد ، دعوة أصبحت نمطاً من أنماط الكلام شائعاً بين الادباء ولا شيوع حديث الازياء بين النساء . على ان حديث الازياء هذا قد يتنوع ويخرج من النطاق الرتيب الممل ، وينقلب آخر الامر الى عمل ، فنرى اثواباً تفصّل وتخاط . ولكن يظهر ان حديث هذا الادب غير الانعزالي ، الذي ينبثق من صميم المجتمع ، لا ينتهي ولا

يتبدل ، ولا يحول الى عمل كيما يبدأ فعلاً انتاج مثل هـــذا الادب . حقاً ، لقد طال حديث الطهاة عمـــا سيطبخون لنا ، فليشرعوا في الطبخ !

وبعد ، ففي رأيي ان هذه الدعوة الى ادب اجتماعي – وإن لم اكن براء منها – دعوة لا تخلو من الوهم والايهام . فالادب في كل حال ، وفي كل مراحل التاريخ ، نتاج اجتماعي مادام هو صنيع بشر ، وما دامت مادته هي مادة الحياة التي يحياها البشر وانعكاساتها وظلالها في الخيال والحس البشريين . لنتصور ما شئنا من صنيع أدبي يبدو اشد شيء انقطاعاً عن المجتمع ، ثم لنتعرف منشأه وعصره على نحو ما تكون المعرفة المعمقة ، وانا الضامن ان نجد ذلك الصنيع الادبي متصلاً بمجتمعه ، وله مغزى اجتماعي يؤول الى موقف انسجام او معارضة من مجتمعه .

وهنا لا بد ان يسرع قائل الى القول : « فما دام الأدب نتاجاً اجتماعياً في كل حال ، وما دام الأديب لا سبيل له الا ان يتناول مادة لأدبه من المجتمع ، فلم لا يفعل ذلك ، واعياً ما يفعل ؟ ان هذا هو ما ندعو اليه ! » ولكن من ذا الذي زعم ان الأديب حُظر عليه ذلك ؟ على ان تاريخ الادب وتجارب الادباء تشهد بأن اروع الآثار الادبية اكثر ما تكون مصادفات وُفق اليها الادباء على غير إدراك منهم ، برغم ان المصادفات لا تخدم الا النفوس المهيأة كما قال الحكماء . وبعبارة اخرى ، ان النقاد الكبار ، الذين يعون حق الوعي شروط العمل الادبي ، من حيث الشكل والقالب ، ويعون حق الوعي ما يريدون ان يضمّنوا هذا القالب والشكل من معنى اجتماعي ، قلما كانوا ادباء كباراً ، وقلما كان ادبهم في المستوى الرفيع . وانما هو ادب تقرأه فتقول انه مفيد ، وواف بالشروط ، وانه قد صُنع وفق الاصول ، إلا انك لا تحسه مع ذلك ممتعاً رائعاً ، ولا تظفر منه بذلك الطرب الذي يشيعه في أجزاء النفس الادب الممتع الرائع حقاً .

وهكذا نرى ان ما نريده للأديب من عنصر نسمّيه وعياً اجتماعياً لرسالة يبثّها خليقٌ في أفضل الحالات ان يجعل من الاديب ناقداً . فأما في الحالات الاخرى فيجعله صحافياً وربما حطه الى درجة وكيل إعلانات . ذلك إلا أن يكون الاديب عبقرياً يستطيع أن يجمع بين الوعي وتلك النشوة التي لا أدب من دونها ، ويمزج بين المنفعة والمتعة والروعة .

ثم يبقى أمر ، وهو حقاً عظيم الخطر : من ذا الذي يختار للأديب رسالته الاجتماعية ، تلك التي نريده أن يبثّها بأدبه ؟ أهو الذي يعي تلك الرسالة بنفسه ويختارها لنفسه مقتنعاً مطمئناً ، أم أنها تُفرض عليه من حكومة أياً كانت ، تسُد عليه سبل التعبير إلا أن توافق رسالتـــه هواها والا ان يطبّل ويزمّر لاعضائها . إن من المؤسف حقاً أن يكون الدعاة من ذوي السلطان الى أدب اجتماعي ، لا يعنون في الحقيقة أدباً اجتماعياً – لان كل أدب هو اجتماعي كما قلنا – وإنما يعنون ادبـــاً حكومياً ، أو ما يلحق بنوع الادب الحكومي من ادب حزبي ضيق ، إذ ما من حزب يحترم ذاتـــه الا وهو يسعى ليصبح حكومـــة . وليس من الاسراف أن نقول ان الادب الذي يكتفي بان يوصوص من نوافذ حكومة أو حزب هو شرٌ من الادب الذي ينظر من نافذة برج عاجي .

وهذا في الحقيقة أوجه الأسباب التي حملتنا على ان لا نقبل الدعوة الى ادب « الالتزام » على علاتها .

الأدب ، وإن كان اجتماعياً ، إنما هو فعل فردٍ لا يقوم به إلا من خلال نفسه . فالأدب صنيع نفسي ، « عملية » نفسية ، لا مفر ولا مناص [1] . ومن هنا صدق الذي قال إن في الأدب إطلاقاً ، عنصراً غنائياً لا يستغنى عنه . وبذلك يختلف الأدب عن كل عمل آخر ، يهيء لك الطاهي المدرّب لوناً من العجة دون ان يتكلف إلا حركة يدوية ، ومع هذا تأكل عجة شهية . ويملي عليك الكيميي المرن فصلاً في العناصر ، في غير ما عناء عقلي شديد ، ومع هذا تقرأ فصلاً موفقاً في موضوعه . ولكن الأديب ، بالغاً ما بلغ ، ينبغي له في كل مرة يكتب ان يعبيء ذاته التعبئة النفسية التامة التي يتطلبها الانتاج الأدبي . فالانتاج الأدبي يستعصي برغم التكرار ان ينقلب الى عمل آلي ، أو عمل عقلي بسيط يكتفي بالتناول من الذاكرة . ومن هنا كان الأدب لا يخضع لأن يكون « بضاعة » ينتجها الأديب « تحت الطلب » على قـــدر مرسوم ونوع معلوم . ومن هنا كان الأدب لا يسخّر للتقنين .

فاذا التزم الأديب فليلتزم الصدق لنفسه . واذا التمس أدباً اجتماعياً واعياً فليلتمسه من خلال نفسه : أي من خلال تفاعل نفسه مع مجتمعه تفاعلاً حراً بقوة وصدق وعمق . ثم فليذكر ان الأدب اجتماعي ، فليس شيء انساني غريباً عنه !

هذه بدهيات في الأدب أصبح التنبيه عليها ضرورة حيوية

(١) بهذه المناسبة ، أهنيء الآداب على هذا الباب الذي سمته « النشاط الثقافي في العالم العربي » ، وأشير بوجه خاص الى ما حمل الينا من أصداء مناظرة دراسة بين بعض أدباء بغداد على هذا الموضوع الذي نعانيه في مقالنا

ر. خ.

للأدب في وقت باتت الدعوة فيه الى أدب « الالتزام » زياً من الأزياء . وأعيد القول انني لست براءً من هذه الدعوة، واكبر الظن اني من هنا أتيت لنفسي الحرية في نقدها .

والتكسب !

ولقد كنت حقيقاً ان أستغني عن هـذه الاطالة في أدب « الالتزام » بما كتبه الأستاذ ميخائيل نعيمه تحت عنوان « مجد القلم » ، فانه قد سبقني الى كثير من الخواطر التي ساورتني وجلاها بافضل مما جلوتها . ولشد ما أعجبني تحذيره الأدباء الناشئين من الاغترار بالشهرة والتعلق بحبالها . فكما يؤذي الأدب ان يصبح أداة تطبيل وتزمير ، كذلك يؤذى الأديب إذا هو أخذ بالتصفيق والترويج لشخصه .

على أني كنت أود من الأستاذ نعيمة ان يلحق بوصيته للأدباء الناشئين ما يحذرهم به من التكسب ، ويفهمهم به ان الأدب لا يطيق ان يكون وسيلة معاش !

أما كيف يعيش الأديب ، فتلك مسألة أخرى كما يقولون. المهم : ان الأدب لا يتحمل ان يكون وساطة ارتزاق ، فذلك يفسده ويصرفه عن قصده .

الفصحى أداتنا

والفصحى كنت أود لو ظفرت من هذا العدد من «الآداب» بأكثر من هذه الملحوظة العابرة التي عُلق بها على ما جاء من حوار بالعامية في قصة « الكسيح » للاستاذ شاكر خصباك : فالفصحى هي أداتنا التي نؤدي بها انتاجنا الأدبي عربياً في متناول قراء العربية كلهم . ذلك ان العامية ليست بلغة جامعة ، فضلاً عن انها لا تنهض بما تنهض به الفصحى . واني لاتمنى على « الآداب » ان تقوم بحملة في سبيل اللغة الفصحى ، تدعو الى استعمالها لغة حوار في حلقات المدارس . فمن المعيب حقاً ان يكون الكثير من أساتذة الدروس العربية في المعاهد الثانوية، والجامعات معما فيها الجامعة اللبنانية ، يلقون الشروح بالعامية ويأذنون لطلابهم ان يناقشوهم بالعامية .

وبهذه المناسبة ، يطيب لي ان أعرب للاستاذ شاكر خصباك عن سروري بقصته ، فان السرد فيها طليّ والموضوع قيم . ولكني لم أفهم لِمَ أصرّ على ان يكون كلام بطلي قصته بالعامية، بينما كان يخاطبها هو بالفصحى . لو انه جعل كلامه هو ايضاً عامياً ، ان لم يشأ ان ينطق الثلاثة بالفصحى ، لبدا لي صنيعه اوفر حظاً من التآلف والانسجام .

وثمة ملحوظة أخرى . ان قصته ذات مغزى اصلاحي جتماعي . ومع ذلك فقد جعل فيها المجتمع العراقي يخلو من مُطالب بدم القتيل يلح على تعقب الجناة وتنفيذ العدالة فيهم ، حتى كانت الخاتمة ان شنق الولد الكسيح نفسه ! حقاً ، قد يحصل ذلك في الواقع . ولكن قصة يراد بها ان تكون اصلاحية اجتماعية ، لا يصح أن تخلو من جانب ايجابي يمثل النواة للاصلاح المنشود ، والا وقع اليأس من الاصلاح . فأين الجانب الايجابي في هذه القصة ؟ اني لم أجد فيها الا الهمة صارخة وقعت ، ثم لم أجد بصيص نور يبشر بامكان وقف مثل هذه المظلمة ان تتكرر. كلا ، لا يجوز تصوير مجتمعنا على أنه خلا ممن يغضبون للحق .

الى الاستاذ سعيد تقي الدين

ومثل هذه الملحوظة تصدق على قصة الاستاذ سعيد تقي الدين « المرحوم » . فانني لا ارى طبيعياً ان يكون هذا هو حقاً شأن ابو توفيق ، ثم لا يوجد من يشعر بانه رجل نكب وظلم ، فتجب رحمته. وما ارى الاستاذ تقي الدين الا مسرفاً في تسويد اللوحة حين يزعم ان الجبليين « لولا تأديهم بالحديث ، وممارستهم لمظاهر الاحترام ، لافنى بعضهم بعضاً ، فان نفوسهم يغمرها الحقد والتحاسد والتباغض » الخ . .

الى الاستاذ فؤاد الشائب

ثم انت ايضاً تسرف يا صاحبي في تسويد اللوحة . « هبطت من جنتي وانحشرت في البشرية الفانية . حملت هراوتي واردت ان أقتل خوفاً من ان أقتل .. على انني عندما اجلت الطرف حولي لم ار سوى كل صدر كثّ الشعر ، وكل ساعدين غوريليين ، وهراوات ضخمة ». وقانا الله شر الموظفين عندما يتزاحمون على الوظيفة ، ويتدافعون بالارجل والايدي والمناكب تدافعاً هستيرياً محموماً ، بل عندما يكلبون ويعض بعضهم اعقاب بعض ، كما تقول ومع ذلك ، فالموظفون يا صاحبي يبررون ان تصور بيئتك بهذه الصورة البشعة . وانك لتقع في التناقض حين تريق على بيئتك مثل هذا الصباغ الكريه ، ثم تصدر عما صدرت عنه في سائر مقالتك من حب لبلادك وغيرة عليها . حقاً ، انها لمأساة نفس !

رئيف خوري

اعلان مناقصة

في الساعة ٩ من نهار الخميس الواقع في ٢٩ / ١ / ٩٥٣ تجري وزارة الدفاع الوطني مصلحة الجيش مناقصة لتازيم محطة تشحيم وبطاريات كهربائية للاجهزة اللاسلكية . فعلى راغبي الاشتراك الاطلاع على دفاتر الشروط الموضوعة خصيصاً لهذه الغاية لدى رئيس مصلحة السيارات حيث يمكن مراجعتها يومياً ضمن اوقات الدوام .